إنَّ المعالي مُذْ نشأنَ سحائِبٌ تسقي ثَراكَ غدوُّها ورَواحَهَا
أخْضَلْتَ من ماءِ الحياةِ مرادَها فغَدَتْ تُبَوِّىءُ في ذَراك مَراحَها
[99] وجَرى بذاك العَذْب، في شجَراتِها فثَنَتْ عليكَ غُصُونُها أَمداحَها
فوضعتَ دِرَّتَها وقُـ ْتَ زمامَها فتكسَّبتْ بكَ بشْرها وسَماحَها
والمأثُراتُ إذا اعتُبرنَ فإنَّما طُبِعَتْ جُسوماً كنتُم أرواحَها
سَلسَلتُم راحَ المكارمِ لِلوَرَى فسَقيتُمُوه نَميرَها وقَراحَها
مرحتْ جيادُك ليس يثنِيها السُّرى ولأمْرِ غَيْبٍ ما تطيل مَراحَها
وشَرَتْ سيوفُك بالعلى أغمادَها يَوْمَ الوَغا فاستجزَلَتْ أرباحَها
تَسْقي العُدَاةَ سِمامَها فكأنَّها أيْدٍ تُصفِّق للندامى رَاحَها
بأكفِّ طائفةٍ ترى يومَ الوَغا بفنائها أن تستحدَّ فلاحَها
هَجَرتْ لأطرافِ الرِّماح سهامُها ونفَتْ لأِشْفار الظُّبَى أرماحَها
تختارُ من بِيضِ السُّيوفِ فليلَها وتَذُمُّ من سُمْر الرِّماح صِحاحَها
وتظلُّ إن سفع الحديد وجوهَها صبغت بتأمُور القُلوب صِفاحَها
وإذا دَعاهُم صارخٌ لكريهةٍ طَاروُا لها بِيضَ الوجُوهِ صِباحَها
متهَلِّلينَ كأنَّ في قَسَماتِهِم . . . سُرُجاً تُبين تحتها ؟ أشباحَها
أنتَ الذي إنْ حلَّ ربْعك طارقٌ ألفتْ لك الكُوم العِتاق رِماحَها
وتخاضَعَتْ ذُلَّلاً إليك رقابُها تُزْجي إليك هجانَها ولقاحَها
وإذا امْتطى ظهْرَ الحصان رأيتَه بدرَ الكتائِبِ ليْثها جَحْجاحَها
وإذا امْتريتَ نوالَه ألفَيْته سمحُ الخلائق جزلها وضَّاحَها
يا رَوضة للآمِلينَ وجنَّة تدْعو بحي على النَّدى ممْناحَها
إنَّ الأعادي لا تزال كعَهدِها تورى بشلبِ مَغارها وكفاحها
[100] قد غيَّضت أنهارها وتحرَّقتْ أشجارَها وتكفَّأت أقداحَها
كلِفتْ بها أعداؤها حتَّى لَقَدْ أخذوا عَليها نجدَها وبِطاحَها
ما ضرَّنا إنْ غلَّقوا ما حَوْلَها إن كانَ سَيفُك بعَدْها مفتاحَها
وأنا الزَّعيمُ إذا أشرتَ بلحظةٍ أن تسْتردَّ عداءَها وطماحَها

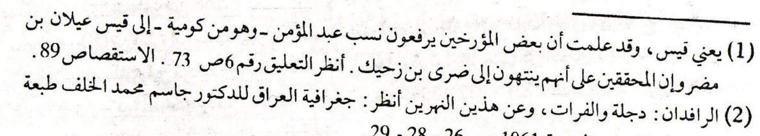
فعَلى سيوفكَ أنْ تُبيد كماتَها وعلى جُيوشكَ أن تروِّح ساحَها
أشكو اليكَ من اللَّيالي إنَّها قد أبرَحَتْ بظَلامَتي أبراحَها
كم رُمتُ أن ألقاكمُ وتصدُّني نُوَبٌ تنيخُ بساحتي أتْراحها
وتَضيق نفْسي ثم أجري ذكركُم فتظلّ تَستدْني إلي نجاحَها
إن كان دَهري يَبْتغي إفْسادَها بِجمَيلِ رأيك قَدْ أسوْتَ جراحَها
قلِقَتْ رِكابي من مُعاوَدة السُّرى وحمدنَ رأيي حين كنتَ صباحهَا
وصلتْ إلى ملِك الهُدى فأعادَها ممَّا شكَتْه من السُّرى وأراحَها
والَيْكَها قد بيّنتْ عن طاعةٍ قصرتْ عليكُم محضَها وصُراحَها
وشدَتْ بذكركُم الجميلِ فعطَّلت زَهرُ الحدائِقِ وردَها وصباحَها

ووفد مع الشعراء أبو عمر بن حربون(1) فقال مهنئاً على هذه البيعة السعيدة ومادحاً وذكر الوقعة التي كانت على ابن همشك وابن مردنيش بجبل السَّبِكة بغرناطة في عام سبعة وخمسين قبل البيعة : (الطويل)

[101] لكم بعْدَ حمدِ الله تُهدى المحامِدُ وفي وصْف علياكُم تُصَاغُ القلائِد
فإن لكم حقّاً عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ ربِّتما تقضِي الحقوقَ القصائدُ !
إليكم سَرَى من شِلب ركبٌ كأنهم مَطارد أو هُمْ للخُطُوب طرائِدُ
سرَوْا فوقَ أعناقِ الشَّدائدِ نحْوَكُم وفي طَلَبِ العَلْيا تَهُونُ الشَّدَائد
لعمر عُلاكم إنَّها لمليئَةٌ بِمَا ضمِنتْ عنْها العِتَاقُ الجَلاَعد
أتْته بما أبقتْه منها ، ومنهُمُ صروفُ اللَّيالي والسُّرىَ والفَدافِدُ
تجُوبُ بهِم جلبابَ كلِّ دُجُنَّةٍ تَكَادُ تضلُّ القصدَ فيهَا الفَراقِدُ

(1) هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون كان أولاً في جملة كتاب ابن قسي زعيم المريدين ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص وطلبة الحضر إلى أن مني بالحرمان، أورد له ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في مناسبات مختلفة وممن روى عنه أدبه وأشعاره عبد الله القيسي وابن حربون هذا غير الشاعر ابن حزمون (بالزاي) المرسي. ابن الآبار، التكملة، عدد 1427، الحلة السيراء نشر دوزي ص 200، 201. صفوان بن ادريس، زاد المسافر ص 89 المراكشي، المعجب ص 293- 294- 295 - المن بالامامة 111- 213 ابن عذاري، البيان المغرب ص 46.

وَلَـوْلَا خُـطُوبٌ أخَّـرتْني لَـم يَفِـدْ ... عَلَى الحَضْـرَةِ العَلْيَـاءِ قَبْلِيَ وَافِـدُ
فإنْ لم أكُنْ مِن شاهِدي بَيْعَةِ الـرضا ... فـإني بـإخلاص الضَّمير لشاهِـدُ
فَحَسْبُ الليَّـالـي أو فحَسْبِي أنني ... مَدَى الدَّهر ساعٍ في رِضَاكُم مجاهد
رأيتُ العِدَى قـد أخلفتْهُم ظنـونُهم ... مُـذُ انتُجِزَتْ للدِّينِ هَـذِي المَواعِـدُ
فمـا زِلتُم تـرقُـون حتَّى انتهيْتُمُ ... إلى مُسْتَوى لا يَـرتقي فيه حَـاسِـدُ
فَجَـاءَكَ بُـرهـانٌ من الله صـادِعٌ ... يُقـرِّبُـه من لَمْ يـزل وهـو جَـاحِـدُ
هِيَ البيعـة الغرَّاء جاءت يقـودُهـا ... إليـكَ من الأمْـر السَّمَـاويّ قـائِـدُ
تَسَـرْبَلهـا من سِـرّ قَيْسٍ [1] محبَّبٌ ... إلَى النَّـاس مَيْمُون النَّقِيبَـةِ زَاهِـدُ
وأبـيض فيَّـاض الـيَـدَيْـنِ مُـبَـارك ... على وَجْهِهِ من نُورِ ذي العَرشِ واقِدُ
فـإن قـلّد الأمـرَ الـعَلِيَّ فـإنَّـه ... لأفْضَـلُ مَنْ تُلْقَى الَيْـه المَقَـالِـد
مـلِيـكٌ إذا لاحَ الـنَّـهَـارُ معـظَّمٌ ... وأمَّـا إذا جنَّ الـظَّلام فعَـابِـدُ !
يَـدِين لَـهُ مَن لم يـدِنْ لخلِيفَـةٍ ... ويقْضِي لَـهُ بـالفَضْـلِ غـاوٍ وَراشِـدُ
[102] ويـكتَسِـبُ الـرّعـدِيـدُ مِنْـه بَسَـالَـةً ... وتَـعْـرِفُ مِـن جَـدْوَى يـدَيْـه الـرَّواعِـد
فمـا يَـدْفَـعُ المَـوهُـوب إلا بيُمْنِـهِ ... ولا تُـقْتَنَـى إلا لَـدَيْـهِ الـفَـرائِـدُ
فَيَـرْجِـع عنْـه جاهِـلٌ وهْـوَ عَـالِمٌ ... ويَـرْجِعُ عنْـهُ مُعْـدِمٌ وهْـوَ واجِـدُ
لَـهُ راحةٌ لـو أنَّ للمُـزْن جـودَهـا ... لما سَاريَبْغِي الخَصْبَ في الأرضِ رَائِدُ
وطبْـع تمنَّى الـرَّافِـدَان[2] لَـو أنَّـهُ ... يـمـدُّهُـمـا مِنْـهُ مُعِـيَّنٌ ورافِـدُ
إليـه انتَهَى النُّور المُبين الَّـذي بـه ... تـبـصَّـر ضـلِّيـلٌ واذْعَـنَ مَـارِد
هُو المُصطَفى من صَفْـوةٍ بَعْدَ صفـوة ... وطيبُ الفُـروع أن تَـطِيب المَحَـاتِـد
سَلِيـلُ الإمـامِ المـجْتَـبَى وشَبِيهُـه ... فـإن حَـلَّ مـولـودٌ فقـد حَـلَّ والـد !


(1) يعني قيس، وقد علمت أن بعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن - وهو من كومية - إلى قيس عيلان بن مضر وإن المحققين على أنهم ينتهون إلى ضرى بن زحيك. أنظر التعليق رقم 6 ص 73. الاستقصاص 89.
(2) الرافدان: دجلة والفرات، وعن هذين النهرين أنظر: جغرافية العراق للدكتور جاسم محمد الخلف طبعة معهد الدارسات العربية 1961 ص 26 - 28 - 29.

مجـالسهُم روْضَاتُ نجدٍ[1] يـزينهـا ... من الـنُّـور أجنـاسُ تُـؤَامٌ وفَـارد
مجـالسُ لو تَـرْقَى الكَواكِب نحْـوَهَـا ... لقـد بـاتَ تلميـذاً لـديهم عُـطَارد
لقـد عَمـرت بـالعِلْمِ حتَّى كـأنهـا ... لكثْـرةِ ذكْـر الله فيهـا مَسَـاجِـد
إذا نضَـدُ الـدّيبـاج مَـالَ بِمَعْشَـرٍ ... فلَيْسَ لهـم إلَّا الـدُّرُوع نضَـائِـد
وإن مَـرِهتْ حـرْبٌ عـوانٌ فعنـدهم ... لَهَا مِن شَبَا السُّمْـرِ الطِّوالِ مَـراود[2]
بعَـدْلِ أبي يَعْقُـوب يَـأمَنُ خـائِفٌ ... ويُجْبَـرُ منْهَـاضٌ ويـصْلح فـاسِـدُ
فَتًى تنْجَلي الظَّلماءُ عَنْ نُـور وجْهـهِ ... فَمهْمـا بَـدَا لَـمْ يفقـدِ البـدْر فـاقِـدُ
وَسَـايلْ بـه تُخْبِـرْكَ عن عَـزَمَـاتِـهِ ... سَـوائِلُ من مَـاءِ الحَـدِيـدِ رواكِـدُ
عَلَيْهَـا لِـرَقْـرَاقِ السَّـرَابِ غَـلَايـلٌ ... عَلَيْهِنَّ من رَدْعِ الـدِّمَـاءِ مَجَـاسِـدُ
تَـجَمَّـعْـنَ مِـنْ مَـاءٍ ونـارٍ تـألَّـقـا ... فَـلَا المـاءُ مُنْسَـابٌ ولا الجَمْرُ هـامـد
وظنَّت مجـاجُ النَّحْـلِ مِنْهَـا بمـالَهَـا ... ومـا هُـو إلَّا مـا تمُـجُّ الأسَـاوِدُ[3]
[103] وسُمرٍ طِوالٍ من رماحٍ رُدَيْنَةٍ ... تـطولُ بهـا يـوم اللِّقـاءِ السَّـواعِـد
أَبَـتْ أن تَـرى إلَّا وريَّـان صَـادر ... يـفيءُ دمـاً منهـا، وظَمْـئـآن وارِدُ
تمِيسُ كمـا مـاسَتْ قُـدودٌ نـواعِمٌ ... تـثقِّـل أغْـلامـاً ثُـديٌّ نـواهِـدُ
تـزَيَّتْ بـزَيِّ الحُبِّ فَهْيَ سَـواهِمٌ ... وأعيُنُهـا حُمْـرُ المَـئـاقِي سَـواهِـدُ
وعُـوجٍ كـأمثالِ الـسَّراحين شـزَّبٍ ... قـريبٌ لـدَيْهـا النَّازحُ المُتبـاعِـدُ
حِسـانٌ لـو أنَّ الحُسْنَ نِيـلَ بِمَطلب ... لأصْبَـحَ تسْتمليـهِ منهـا الخَـرائِـدُ
إذا ألجمَت لم يَعصم العُصَمَ معقلٌ ... ولم يحترمْ في البِيـدِ منهـا الأوابـدُ
فمـا سَـوَّمَتْ من قبلهن بَـوارقٌ ... ولا ملكتْ هُـوج الـرِّيـاحِ مَقَـاودُ
إذا شـطبَـةٌ منهـا بـدَتْ تحتَ فارسٍ ... بَـدا أسَـدُ من فـوق فَتْخاء قـاعِـدُ
تـراها كمـا ولّى من الذُّعـر خاضِبٌ ... وأقبـل مـذعـورٌ من الأدم شـاردُ

(1) نجد: البلاد التي فوق العالية من جزيرة العرب بالنسبة لتهامة. ياقوت: معجم البلدان. تاريخ نجد (للشيخ ابن غنام) نشر الدكتور ناصر الدين الأسد 1961.
(2) العين المرهى: غير المكحولة، وشبا كل شيء: حدّ طرفه.
(3) جمع أسود: العظيم من الحيّات وفيه سواد.

لقد وردَتْ شِنّيل منها[1] مقانِبٌ ... كما انحدَرتْ من رأس رَضوى[2] الجلامد
تجلَّل منها المَرْدَنيشيُّ خزْيَةً ... تناغى بها بينَ البُيوتِ الولائِدُ
وولّى بها شوْهاءَ قد فضحتْهُمْ ... كما افتضحَتْ بعدَ الأماني عامِدُ[3]
قريتم سِباع الأرض منها فأصبحتْ ... كأنَّ رُباها للعَوافي[4] مَوائِدُ
لقد أيقَنوا أنَّ الحتُوفَ مصادِرٌ ... غَداةَ رأوا أنَّ الشِّفارَ المَوارد !
فجاءوا كما جاءَتْ أُسُودٌ بَواسِلٌ ... ووَلَّوْا كما ولتْ نَعامٌ شوارد !
كَتائبُ كالخاماتِ خامُوا ، فأصبَحوا ... وهُم للسُّيوف المُراهَفاتِ حصائِدُ
نـزَلْتَ عجاجَ الموتِ ثم تكشَّفَتْ ... وقَدْ فازَ بالنَّصر الجَليدُ المجالِدُ
ولم يَغْنِ عنهُم يوم ذلك كَيْدُهُم ... وهَل يَدْفع الحِين المُتاحَ المكائِدُ
[104] ومايَصْنَعُ السَّيف المصمم في الوغى ... إذا لم تساعده على الضرب ساعد[5]
إذا كان صيُّور الملوك بحُكمكُم ... فسيَّان منهم طائعٌ ومعانِدُ
وما المجدُ إلا من هِباتِ أكفِّكُم ... فمَن نال حظاً منكُم فهوَ ماجِدُ
ودونكَمُوها من ثنائي فريدةً ... عليها من النَّظم البَديعِ فَرائدُ
تلاقى علْيها من لِساني شاكِرٌ ... ومِن نِعَم المَولى المعظَّم شاهدُ
وفي خَلدي إن كان في العُمْر مهلةٌ ... عجائبُ يفنى الدَّهرُ وهي خوالِد !
قصائدُ أنَّى سرتُ يوماً فإنَّها ... الى ابْن أميرِ المؤمنينَ قواصِدُ .

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 132 .
(2) رضوى : اسم جبل بين المدينة والينبع : ومنه المثل العربي : «أثقل من رَضْوى وخاخ ، شيخ تشاب وشاب تشاخ» .
(3) كذا في الأصل ولم نتبينّ جيداً من معنى الشطر الثاني للبيت . .
(4) العوافي جمع عافٍ : كلّ طالب للرزق ، وقد قرئت لدى بعض الناس «العرافي» جمع عرفاء : الضبع وذلك لطول عرفها وكثرة شعرها قال الشنفري :
ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وارقط زهلول وعرفاء جيال
التّازي : لامية العرب طبعة الرباط ، 1953 ص 21 .
(5) على يمين هذا البيت طرة باهتة لم نتبينها إلا في (أكسفورد) ، وقد كتب فيها باللّفظ : «هذا ينظر إلى قول المتنبي : وما السَّيف إلا مستدار لزينة» . وقد حاولت عبثاً أن أجد له ذكراً بين شعر المتنبي ، وقد أفاد الأستاذ البحّاثة السيد عبد الكريم بن الحسني في رسالة مسهبة أن قائله هو البحتري وليس المتنبي من قصيدته في مدح الفتح ابن خاقان غير أنه عوض (مستدار) يوجد (بزّغاد) والبز : السلاح وليس بعيداً تحريف بزغاد إلى مستدار .
أنظر مجلة (الأقلام) العراقية أكتوبر سنة 1964 . ص 178 .

رجع الخبر

ذكر حركة السيد الأعلى أبي حفص إلى أخيه السيد أبي سعيد على معنى التحامل والتعاون ، والتواصل والتعاون ، واجتماعهما بجبل الفتح جبل طارق

تحرك السيد الأعلى من حضرة مراكش في أول شهر ربيع الأول الموافق لبقية أيام[1] من شهر ينير العجمي من عام ستين وخمس مائة في جملة من أعيان رجال الموحدين - أعانهم الله - وأبناء الجماعة كأبي يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2] ، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت[3] ، وإسحاق بن أبي إسحاق بن جامع[4] . ومن أشياخ ثوار الأندلس المختصين به كأبي محمد سيد رأي [105] ابن وزير[5] ، وأخيه أبي الحسن[6] علي ، وصاحب لبْلَة[7] علي الفخار ، وزيد بن محبوب ، ومحمد بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي[8] ، ومن أشياخ مسُّوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدْر ، متوسطة العدد والذكر ، عددهم نحو الأربع مائة فارس ،

(1) الموافق 16 يناير 1165 .
(2) راجع تعليق رقم 6 صفحة 93 .
(3) من أبناء الجماعة ، وقد صحب السيد أبا حفص ابن الخليفة عبد المؤمن إلى غزو ابن مردنيش سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكذلك صحب الخليفة أبا يعقوب يوسف في موقعة وبْذة ، وذهب في مهمة إلى بطليوس . . . أنظر ص 279 من ابن صاحب الصلاة .
(4) من أعيان رجال الموحدين ، وأغلب الظن أنه أخ للوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع راجع التعليق رقم 2 صفحة 169 .
(5) هو صاحب يابرة . أنظر التعليق رقم 3 صفحة 67 . الاستقصا . الجزء 2 . ص 107 .
(6) انظر التعليق رقم 4 ص 167 .
(7) لبلة (NIBLA) : مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من إشبيلية . الروض المعطار ص 168 .
(8) من أسرة ابن سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalà la Real) ويظهر أنه أخٌ لعبد الرحمن وزير المظالم لدى ابن مردنيش والمنضم للموحدين بعد ، وقد تولى كل منهما على التوالي الاشراف على أعمال البناء الجارية في المسجد الجامع باشبيلية . راجع صفحة 325 - 332 - 337 - 338 - 339 . ابن الخطيب : الاحاطة ، مخطوطة الأسكوريال ورقة 147 .

وصحبه بالأمر الكريم للغزو في هذه الحركة السعيدة الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين[1]، وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن وانودين[2] بعسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم كعلي بن محرز بن زياد[3]، وأخوته المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد، ومن قبيله وشيعه رجال فرسان أبطال زهاء أربعة آلاف فارس ليتقدَّما بهم بين يدي السيد الأعلى الى إشبيلية وقرطبة لحماية صيفتهما في مواسطهما وثغورهما ودفع الأعداء الرُّوم والأشقياء المنافقين عن معمورهما، فوصل السيد المذكور وجمعه الموفور الى مدينة سلى بالجميع، وأقام فيها نحو شهر للنظر في المصالح، وتقدم الشيخ أبو سعيد وأبو عبد الله محمد بن يوسف، بالعرب الى البحر للأجازة على ما توعد معهما عليه، وفي أثناء هذه الإقامة خاطب السيد الأعلى أخاه إلى قرطبة يعلمه بالمشي إلى لقائه، وتنسّم ريح المواصلة من تلقائه، وان يكون المجتمع بجبل الفتح جبل طارق - عمّره الله - فوصل جوابه منعماً بذلك تحت وعد صادق، [106] وعهد مُوافق، فأعمل السيد الأعلى حركته الميمونة ومشيته المصونة، بجملته الخاصة المذكورة المتعينة من سلَى الى طنجة.

قال المؤلف عبد الملك بن صاحب الصلاة: كنت[4] في جملة الواردين قاصداً التبرك بالسيد الأعلى، ولأحضر مع طلبة الحضر الوافدين، وأقصد قصد القاصدين. ولما وصل السيد الأعلى الى طنجة[5] بجملته المباركة ركب منها

(1) يخلف من شيوخ الموحدين الذين اعتمدهم البلاط الموحدي في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس، ولذلك فقد نال تنويهاً من قبل الخليفة يوسف في الرسائل الموحدية، وقد كان عين من قبل عبد المؤمن بن علي وزيراً في بجاية لولده عبد الله ثم بعث به يوسف كطليعة أولى عندما قرر الجواز إلى الأندلس سنة 566. البيذق ص 32 - 33. الاستقصا ثان ص 110.

(2) أنظر التعليق رقم 5 ص 117.

(3) هو ابن الثائر العربي محرز بن زياد أنظر تعليق رقم 6 ص 72.

(4) أمسى ابن صاحب الصلاة يتحدث عما رآه رؤيا عين وقد نزل بجبل طارق. راجع المقدمة.

(5) طنجة: مدينة أزلية كانت بها آثار كبيرة للأوَل ويعتبرها بعض الجغرافيين آخر حدود افريقية في المغرب، وكانت على الدوام دار مملكة الأمم الغابرة، ويذكر التاريخ أنه منها كان يمتد رصيف الاسكندر الذي بناه على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس. وكانت تمر القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى الأندلس، ويذكر أنه قبل =

البحر الزقاق في الغراب[1] طيار وعبر به إلى مدينة سبتة منفرداً مع خاصته الخاصّة به وكاتبه أبي الحسن عبد الملك بن عياش، وأمر بمشي الناس على خيلهم على البر إلى (قصر مصمودة)[2] ثم إلى سبتة، فنزلوا بها، تحت أمره بخير منزل، وانسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر مستعجل، فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة، عبر غراب طيار في البحر من الجزيرة الخضراء يعلم مَن فيه بحلول السيد أبي سعيد مع خاصته وأشياخه بجبل الفتح جبل طارق، فعبر السيد الأعلى البحر في ذلك اليوم، ومعه جملة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود، وقرع الطبول والسرور بالورود، وإيصال الشّمل بذلك الوصول، وكان يوماً شهيراً كلّه سرورٌ، وبرز أيضاً فيه السيِّد أبو سعيد في قطائعه بجبل الفتح براياته، وإنجاز عداته، وببشر ملاقاته، ما أبهت [107] الحاضرين، وسرَّ العابرين والنَّاظرين، واجتمعا خير اجتماع، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع، وعمَّ الخير والحُبور بجميع الجهات والأسْقاع ووفد أهل إشبيلية والفقيه ابن الجد، وقاضيهم أبو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد بن المعلم[3] المستناب بإشبيلية، وأهل الغرب[4]، وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتَّهاني، باتصال البشارات والأماني، وجلس السيد الأعلى للناس

= الفتح الإسلامي بنحو مائتي سنة طغى ماء البحر المحيط إلى بحر الزقاق فضاعت القنطرة الاسكندرية. الادريسي ص 168 - الاستبصار ص 138 - معجم البلدان - المقري: نفح الطيب 1949 جزء أول ص - 132 133. راجع التعليق رقم 5 ص 72 والتعليق رقم 4 ص 90.

(1) الغُراب: Gurapus كلمة مرادفة لكلمة قطعة بمعنى السفينة القديمة التي تسير بالقلوع والمجاذيف، وقد ورد ذكرها هنا وكذا في البيذق ومصادر أخرى، واستمر لفظ (الغراب) معروفاً إلى أواسط القرن الثامن عشر ولذلك فإننا نجد له ذكراً في سفارة الغزال لاسبانيا، جمعه أغربة.
ابن صاحب الصلاة ص 108 البيذق، أخبار المهدي ص 107 النص العربي وص 176 والنص طبعة معهد مولاي الحسن، تطوان 1941 ص 11. الاستقصا 6: 75.
Dozy Sup. aux dictionnaires Arabe. T. 2. page 204 - 205.

(2) أنظر تعليق رقم 1 صفحة 128

(3) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 142

(4) يقصد الغَرْب (AL GARVE) من الأندلس.

للسلام في القصر المشيد في البنيان الرفيع الشان ، فدخل وفدُ بعد وفد ، وخطبوا وأطنبوا ، وأُطعموا الطعام ، وأنيلوا المنزل الرحب والأنعام ، وأنشد الشعراء أشعارهم وقضوا فيما وفدوا به أوطارهم ، وحبا السيد الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكِسا على أتمّ الخيرات ، ودامت الإقامة في الجبل مدة خمسة عشر يوماً في مسرَّة متصلة ، ومبرَّة مشتملة ، وأنشد أبو عمر بن حَربون قصيدةً حسنة من أولها إلى آخرها : (بسيط)

قَدْ حَصْحَصَ الحقُّ لا ريبُ ولا فَنَدُ ... هَـذِي الفُتُوح التي كانُوا بها وعدوا
خُذوا بحظِّكم يا أَهْلَ أندَلُسَ ... فليس لغاو بَعْدَها رشد
واسْتَمِسكُوا بعُرَى الأمْر الذي بَهَرتْ ... آياتُه كلَّ مَن يَعْلُو ويَقْتَصِد
اليَوْمَ صُمَّ صَدَى الغاوِي بأرْضِكُم ... والكَلْبُ ينبَحُ ما لَمْ يزأر الأسَدُ !
هذا الذِي وَعَد الله العبادَ بِهِ ... قَد انجزَ الوعدُ حقّاً وانتهى الأمَدُ

[108] هذا سَلِيل إمامِ الحقِّ بينكمُ ... لا المالُ مذَّخَر عنكُم ولا الوَلَد
فقَدْ ظفِرتُم بفياضٍ مواهِبُه ... تُحصى الحَصَى قَبْل أن يحصى لَهَاعدد
يغشون منه إلى أنوار ذِي فِطَن ... يكاد لَوْلا نَدَى كفَّيْه يتَّقِد
لا يقْبض العدم كفّاً عن أخي أدَبٍ ... إلَّا إذا انبَسَطت بالعُرف منه يَدُ
لما اعتضدتُم بِهِ مستصرخين سُرَى ... إليكُم وهو بالرحَّمَن مُعْتَضِد
وجَاء في سَرَعان الجَيْش يقدُمُه ... جِبْريل والملأُ الأعْلَى لَهُ مَدد
تحثُّه من جُنُودِ الله طائفةٌ ... لا ينهد النَّصْر إلا آيةً نَهَدُوا
مُجَرّبون مراس الحَرْب دأبُهم ... فكلَّمَا صَدَروا عن غَمْرةٍ وَرَدُوا
قد طال ما عَجَمتْهم كلُّ ملحمةٍ ... لَهَا طرائقُ في هَاماتِهِم قِدد
أنظرُ إلى مَجْمع البحرين[1] كيف حَوَى ... من الفضائل مَا لَم يَحْوِهِ بَلَدُ

(1) يقصد به جبل طارق، وبه فسر في قوله تعالى: ﴿وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾. (السورة رقم 18 الأية 59) فراجع ما كتبه المفسرون.

لاقَى الكليمُ عَلَى الشَّاطيء به خضراً[1] ... وفيهِ لاقَى أخاه السيّدَ السيِّدُ
صنوان ما اجتَمَعَا في أرض أندلس ... إلا ليُحْيي فيها دينُه الأحَدُ
يا من رأى الفلكَ فوْق المَوْج طافيةً[2] ... كما كفات[3] قباباً وسْطها العَمد
ينسابُ منهنَّ في أعلى غواربه ... أساودُ سَكنتْ أجوافها أُسُد
بحرٌ كأن أبا حفص بصَهْوته ... لقمان والمركب الجَاري به لُبَد[4]
تعجَّبُوا من غُراب[5] فَوْق غاربه ... ثَهْلان ذُو الهضبات الشمّ أو أُحُد
وعايَنَ البَحْر منه[6] لجته ... بحْرا خِضَمّاً له من فضةٍ زَبَد
فالآن قُلْ لذوي الإلْحاد شانكم ... فَمَا لَكُم دُونَ هذا الأمْر ملتحَدُ
وبشّر العُجْم أنَّ العرب قَدْ دلفت ... على العِراب وأن الملتَقَى صَدَدُ
[109] هَاتِيك ثانية اليُرموكِ[7] قد رَجَفَتْ ... ما إن لَكُم صبَبٌ عَنْهَا ولا صَعَدُ

(1) يذكر المفسرون ـ كما قلنا ـ أن مجمع البحرين عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط وبحر الأندلس، وأن في هذا المكان بالذَّات تمَّ التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام. ابن جزي - كتاب التسهيل الأول جزء ثان طبعة 1355 ـ ص 191 - 192. عبد الوهاب النّجار: قصص الأنبياء طبعة 1936 ص 302.

(2) نظراً للمكانة الخاصة التي احتلَّها الأسطول المغربي على عهد الموحدين. والتي كانت الباعث الأوَّل لصلاح الدين الأيوبي على الاستنجاد بهذا الأسطول. فإن القطع الشعرية التي كانت تقدَّم للخلفاء الموحدين، كانت تشير في الغالب إلى هذه الظاهرة الحضارية التي كان المغرب يستأثر بها.

(3) المعنى على (نصبت) مثلاً، لكن المخطوط فيه كفأت ولم أهتضم المعنى على هذا اللفظ.

(4) لعله يقصد لقمان صاحب النُسور وتنسبه الشعراء إلى عاد (لسان العرب). وفي حياة الحيوان للدميري ص 301 جزء 2 في أمثال النسر: وقالوا ـ أتى الأبد على لُبَد، وهذا اللبد هو آخر نسور لقمان بن عاد، وكان قد سأل الله طول العمر فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من البيضة فيربّيه فيعيش ثمانين سنة، هكذا حتى هلك منها ستة فسمى السابع لُبد، وذكر في لبد قولهم: أهزم من لبد وأنشد:

يا بكر حواءكم تعيش وَكَمْ ... تسحب ذيل الحياة يا لُبَدُ

(5) راجع التعليق رقم 5 ص 180.

(6) يظهر أن لفظة (فوق) سقطت هنا.

(7) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق. ياقوت معجم البلدان. دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، مجلد أول ص 225.

فالدّينُ جذْلانُ قد عزّتْ جوانبُه ... والكُفر خزْيانُ ما ينفكُّ يُضطهَدُ
ها إنّها كالدَّبا تَنْساعُ نحوكُمُ ... فيهَا الحِفَاظُ وفيهَا الصَّبْرُ والجَلَد
ترى الكُماةَ الّتي ما شأنُها خَورَ ... عَلَى الجيَادِ التي قد زَانَها الجَيَدُ
شيبٌ ومُردُ يُنادي البأسُ إن ركبوا : ... أيْنَ الغواة الأولى قَدْ طال ما بَردُوا
ظنُّوا بهَا قد أتَتْ تُزجي مقانبَها ... مثْلَ الرّواعِد فيهَا البَرْقُ والبرد
وللذَّوابِلِ في أرْجَائها نَغَمٌ ... كأنّ كلّ سنان طائرٌ غَرد
مِن كلّ أزْرق آثارُ الدّماء به ... كأنّه مقلةٌ قَدْ مَسَّها رَمَد
أطلعتُموها بآفاقِ الوغى شُهُباً ... منيرةً في دياجي نَقْعُها تقِدُ
فليْسَ يصْعَد شيطانُ النّفاقِ بهَا ... إلّا تلقّاه من خرصانها رَصَد
مَن ذَا الذي يتعاطَى وصْف حالكمُ ... والبَحْرُ في جنْب ما تُولونه ثَمَدُ!
فسوّغوا عبْدكم عذراً ، فمجدكم ... يقصّر المرء عَنْه وهو مُجتَهد
ودُونكم مِن قوافِي مَدْحِكم حَبرا ... تَبْلَى اللّيالي وهُنّ الغضّةُ الجُرُد
صَدَرْنَ منّي بحُكم الوُدّ عَنْ كبدٍ ... لولا رجاؤكُم قَدْ فتّها الكَمَد
بعثتُ منهنّ بالسِّحر الحلال ، فلمْ ... تعقد على نفْثِ نفّاث بهَا العُقَد !

وقال عنه ما أجاز البحر منصرفاً بمدينة سبتة في تاريخ ذلك : (طويل)

تجشّمتُ هَوْلَ البحر في طَلَبِ البَحْرِ ... ولم أشْكُ صَرْفَ الدَّهرِ إلّا إلى الدَّهر
[110] فقُلْ للدّياجي أغْدقِي أو تكشّفِي ... فها أنا قدْ أمسيتُ في ذِمّة البَدْر
لعَمْرُكَ ما ألقى أبا حفص الرِّضَى ... وأشكُو اللّيالي مَا تَطاول مِن عُمْر
هُمَامٌ إذَا ما همَّ نَال مُرادَهُ ... ولو أنّه أمْسَى على قِمّة النَّسْر
هو ابْنُ أمير المؤمنين وشبهُه ... وحسْبُكَ من فرْعٍ وحسْبُكَ من بَحْر

فاستحسن هذه الأبيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيه من القصود ، ثم نفذ أمره الكريم بالانصراف ، وعبور البحر الى العدوة والانعطاف ، وسرح

أشياخ بلاد الأندلس الوافدين ، والعمال والأجناد القاصدين ، بعد ما ذكرته من الأنعام عليهم على أوفى التمام المقام ، وأجاز السيد الأعلى وأخوه السعيد[1] وأكثر الجملة الخاصّة به ولم تستكمل المراكب ولا القطائع النّاس في الإجازة في ذلك اليوم ، فأقام السيد في سبتة ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور إليهم بالجبل ، وبالجزيرة الخضراء فأجاز الجميع إليه ، واستقروا في محلته بين يديه ، وكنت[2] مع الوافدين أولاً وأخيراً ورفعت شعراً مع الشعراء على رأي عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه استلطف فيه كرمه ، واستعطف به عدله ونعمه ، وأوصله إليه الكاتب أبو الحسن بن عياش وبيّن عند السيد الأعلى مسألة وفودي وقصودي فوعد رضي الله عنه في جانبي بعدة جميلة ، وبآمال كفيلة .

(مرافقة ابن صاحب الصلاة لركب الخليفة ونزوله بالمغرب)

وصحبت [111] حَمْلته[4] حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كلّ فضيلة، ووصلتها يوم وصوله ، وحللت فيها حين حلوله ، واستسعدت به حيث كان في إقامته ورحيله ، وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي[5] فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تأليفه في (كتاب

(1) هو بالذات أبو سعيد، ولعل الأصل هكذا أبو سعيد.
(2) يؤكد ابن صاحب الصلاة أنه كان في جملة الحاضرين إلى جبل طارق. وأنه كان ضمن الشعراء الذين أسهموا في تحية هذا اللقاء بل واستمر مرافقاً للركب. راجع المقدمة.
(3) يقصد فيها يتأكد أنه لم يتبع في شعره حوشي الكلام ولم يعاظل، وأنه لم يقل إلا ما يعرف ولم يمدح إلا بما هو موجود، وتلك المبادىء هي التي اعتمدها عمر بن الخطاب في الحكم على ابن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء... الأصفهاني الأغاني جزء 9 طبعة بيروت 1955 ص 295.
(4) عوض هذه الورقة رقم 56 نجد في المخطوط المجلد ورقة تحمل خطأً رقم 56 بينما هي في الواقع رقم 61 وتبتدىء هكذا: «أبي عبد الله بن يوسف المتقدمين بالعرب إلى جزيرة الأندلس» راجع المقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ص 16.
(5) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ترجمه غير واحد في غير ما كتاب، وقد كان على رأس=

الرحلة)[1] له حين دخل بغداد وتعرف بسلطانها : « نعمت المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرُّب من الأوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » . ونفذ أمر السيد الأعلى أبي حفص إلى أبي عُمَر بن حربون ، وأبي الحسن[2] . . . . الهوزني كاتب محمد بن المعلم أن

= الوفد الذي ورد على المغرب لتقديم طاعته للموحدين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة توفي على مقربة من مدينة فاس عند رجوعه من مراكش سنة 543، وفي عهد السلطان المولى اسماعيل حين وفد عليه للمغرب وفد المعافرة من الصحراء وتزوج منهم بالسيدة خناثة بنت بكار سيّدهم فسألت عن قبر ابن العربي وأمرتْ ببناءِ قبَّة عليه ما تزال معروفة مقصودة إلى الآن. الحلل الموشية ص 122 ـ المقري نفح الطيب طبعة 1949 جزء ثان ص 233 ـ الاعلام، لخير الدين الزركلي سابع ص 106 ـ العباس بن إبراهيم، الاعلام ثالث ص 11. الدُّرَر الفاخرة. . .

(1) كان القاضي أبُو بكر بن العربي ذهب صحبة والده في مهمة رسمية إلى بغداد مبعوثاً من طرف يوسف بن تاشفين، فقد خاطب يوسف بواسطة هذا الوفد الخليفة ببغداد على عهده أبا العباس أحْمد المستظهر بالله ابن الخليفة العباسي المقتدي بالله في أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس. . . ولكن هذه الرحلة إلى المشرق لم تمر كسائر الرحلات اذْ أنها كانت فرصةً لابن العربي كما يأتي بما لم يأت به أحد، ولذلك فقد ذكر في أبرز مؤلفاته الفريدة (كتاب الرحلة).
ويوجد مخطوطٌ بالخزانة العامة بالرباط يظن أنه (ملخص) لكتاب الرحلة، وهو يبتدىء هكذا:
قال الإمام الحافظ القدوة المبارك الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي (رض): وقد شاهدت من طلب العلم بأفريقية ومصر والشام والساحل والعراقْ والحجاز وما لا يأتي عليه الاحصاء ولا ينال باستقصا. . . ولما سبق القضا برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتُها والعُمْر في عنفوانه، والغصن مايس بأفنانه، ونزلته في كتاب ترتيب الرحلة. . . إلى أن يقول: المرتبة الأولى لما وصلنا إلى مدينة السلام كتب أبي برد الله مثواه. . . إلى الخليفة رضوان الله عليه كتاباً في درج طويل على صفة ادراجهم في مخاطباتهم. . .
وتختم هذه الأوراق هكذا: انتهى ما لخص من هذه القصة. . . الخ. .
وابن صاحب الصلاة هنا ينقل مقطعاً من الرحلة المعافرية مما لم أجد له نصاً في المخطوط المشار إليه وإن كان قد أشار إلى الاتصال برجال الحكم. المخطوط رقم 1020. الخزانة العامة، الرباط ـ المقري نفح الطيب الجزء الثاني ص 235، أحمد الهواري، دليل الحج والسياحة طبعة 1935 ص 293، العباس بن إبراهيم جزء 3 ص 13. ابن خلدون، المجلد السادس ص 386. السيوطي: تاريخ الخلفاء 1959 صفحة 426 ـ الاستقصا ثان ص 53.

(2) هنا بياض وأغلب الظن أن اسم عليّ سقط للناسخ الذي لم يترك فراغاً عتد إيراد الاسم اثر هذا، وأبو الحسن الهوزني هذا هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص كان ـ فيما رواه ابن عذاري ـ من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة عند سرده لحوادث 575، وقد وردت تكنيته عند المراكشي وابن سعيد بأبي الحسين وذكره الأول على أنه من كتّاب الخليفة أبي=

يصحباه لكتابته في جملة كتابه ، فأما أبو الحسن الهوزني فرفعتْه أيامه بتدوينه في المحاسبة وبخطّه ، وأما أبو عُمَر بن حربون فطالبتْه معارفه ، وذنبته أفهامها وأقلامه وأشعاره حتى تمكنت من حرمانه وحطه حسبما أذكره في هذا التاريخ[1] .

وتحرّك السيد الأعلى من سبتة آخذاً في السير ، بالبِشر العام وبأوفى الخَيْر ، فاجتاز في مسيره على مدينة فاس[2] ، ثم أعمل الطريق إلى حضرة مراكش حرسها الله والسعد يقدمه ، والنّصر علمه ، والبشر مبتسمه ، إلى أن وصل فتلقّاه السيد المؤيد الأمير أبو يعقوب رضي الله عنه ، ومع السيد أبي حفص [112] أخوه السيد أبو سعيد خارج مراكش على أوفى الاستبشار ، والسرور البادي باجتماعهم ، والاستظهار ، وإقماع المنافقين والكفار ، وعلى أكمل غاية الظهور والبروز من قرع الطبول وخفْق البنود ، واجتماع النظارة وحضور الوفود بكمال العهود . ودخل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام ستين وخمس مائة ، وأطعم الموحدين الطعام وجميع الناس ، وظهر السرور في الابشار بأجمل الظاهر والإحساس . وأنشد الشعراء أشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا ، وخطب الخطباء فأتوا في ذلك بالسّحر الحلال وبيّنوا ، وقال الأستاذ أبو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس الكريم مادحاً مهنئاً الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون المعلى بالسلامة والتسليم : (كامل)

= سعيد يعقوب والثاني على أنه من كتّاب منصور بني عبد المؤمن كما يذكر ابن عذاري. المعجب طبعة القاهرة ص 244 ـ ابن عذاري ص 106 و165 ـ المغرب في حلى المغرب أول ص 235.

(1) في السفر الثالث دون شك وانظر التعليق رقم 1 ص 175.

(2) لقد علمنا منذ قليل أن ابن صاحب الصلاة كان في جملة الوافدين على جبل طارق وأنه صحب موكب السيد أبي حفص إلى الحضرة العلية، وهكذا نجد ابن صاحب الصلاة يحل بمدينة فاس، ونحن نرجح أن تكون هذه هي زيارته الأولى لمدينة فاس، ونرجح أن يكون استمع في هذه المرة إلى الشيخ المسن الذي حدَّثه عن رحلته لبغداد واتصاله بالإمام الغزالي. ودعاء هذا على أيام بني لمتونة بالبوار! الحلل الموشية ـ نشر علوش ص 85.

وضَحَتْ بـأنوارِ الهُـدَى قَسماتُـه ... وأبانَتِ الهَدْيَ القَويمَ سِمَاتُـه[1]
مَـلِكُ المُـلوك مـؤيَّـدٌ لـكـنَّـه ... غَلَبَتْ عَلَيْـه مِنَ التُّقى مَلكـاتُـه
دانتْ لَـهُ الدُّنيـا وكـافَّـة أهْلِهَـا ... فَعَفَـا وعَفَّ وسامَحَتْ عـطفَـاتُـه
أبْـدَى لَنَـا بشبـابِـهِ وَمَنـابِـه ... عجبَـاً وظاهـرَ حسنَـه حسنـاتُـه

[113] فـرعٌ مـن الـدَّوْح الألـفِّ تـسامـقَـتْ أفْـنَـانُـه . وتـقـابَـلَتْ شَـعْـبَـاتُـه
سَامَى وطَاوَلَ في سمـاواتِ العُلَى ... صَعداً وعاجَـلَ غرسَـه ثمراتُـه
غـرٌّ لـبيـبٌ والـعُـلُوم لِـدَاتُـه ... والـمـعـلوات كَـرائمـاً دَايَـاتُـه
كثـرتْ فَضَائلُهُ فكـاثَـرتِ الحَصَى ... عَـدّاً ، وقَـدْ قَـلَّت بـه سَنَواتـه
ومضَتْ ببـرقِ غيُـومِـه صَفَحَاتُـه ... ومضَتْ مضاءَ صِفاحِـه عَزمـاته
وأفـادَهُ دَهْـراً مُـفِـيـداً مُـنْـعِـمـاً ... وُصِلَتْ ببـاهِـرِ خَيْـرِه خَيْـراتـه
نجْـلُ الخليفـة يقتـدي بـرشَـادِهِ ... وسَـدَادِهِ وتَبـينُ فِيـه سِمَـاتُـه
وَرَدَ الـزُّلاَلَ العـذْبَ في يَنْبُـوعِـهِ ... صفْـواً مَعِينـاً لم تشبْـه قَـذَاتُـه
فهُـنَـاك أسِّس بـالتُّقَى بُنْـيـانُـه ... وهُنـاك شُيِّـد بـالهُدَى حُجُـراتِـه
ولاَّه مـرتـبَـةَ الـفَـخَـار وُلاتُـه ... وبَنَى لـه المَجْدَ الـطَّموحَ بُنَـاتُـه
وتقيّـل الخُلُقَ الـرضي فـانْجحَت ... أضْـحَـاؤهُ وتـيـسَّـرَتْ طلبـاتـه
صبٌّ يـوكَّـلُ بـالـوغَى أو بـالنَّدَى ... لا تُـرْتَجى من وجْـده مسْلاَتُـه
ألِفَ الحُـرُوب فلم يُخِلَّ بعَهْـدِهـا ... والخِـلُّ لا تُنْسَى لَـهُ حُـرمَـاتـه
وإذا تَـذكَّـرهـا أجَـدَّ نِـزَاعُـه ... وحـنِيـنُـه وتـوَاصلَتْ ذِكْـراتـه
يُـلهيـه رَوْضٌ والـقَـنى دَوْحـاتـه ... والبيضُ زهـرٌ ، والـدِّمـا شُقْـرَاتُـه
والسَّـابغـاتُ مـواردٌ يشْفِـي بِهَـا ... حَـرَّ الصَّـدَى وظِـلالُـهُ رَايـاتُـه
في حَيْثُ صـوْتُ المَشْرَفِيِّ مـرجَّـعٌ ... يشْدُو فتطرب في الطُّلَى نَغَمـاتـه
ويهبُّ من ريـح الجـلاد نَسِيمُهـا ... فـتَـشُـوبُـه وتـهـدُّه هـبَّـاتـه

(1) أورد ابنُ عذاري عشرين بيتاً من قصيدة الشواش. البيان المغرب ص 47 - 48.

تَحْنُو عليه الحربُ إذْ كَانَ ابْنَهـا ... ربَّتْـه مِنْ حَمْس الـوَغَى رِبَّـاتُـه
[114] فتَقِيهِ بادرةَ الغـوائلِ والـرَّدى ... وتطيح بـالمـوْتِ الـزُّؤام عِـداتُـه
يـا خَيرَ مَن ملك الـوَرى ودَعـاهُمُ ... لله فـابـتـدرتْ لَـهُ دَعَـواتُـه
جُـوزيتَ بـالحُسْنَى إذا مَـا مُحْسِنٌ ... في فِعْلِه جـزيتْ لَـه فَعَـلاتُـه
مَن يُصْفِ حبَّك أسْعدتْ أحْـواله ... ومثـالُـه وتُـقُـبِّـلَتْ قُـرُبـاتُـه
مَنْ يَقتـدي بكَ يهْتـدي ، أو مَن يَرُم ... سُبُـلَ النَّجـاة فـأنتُم مَنْجـاتُـه
وتَـهَـنَّـأ الـبُـشْـرى بـأوْبَـةِ سيِّـدٍ ... قُـرِنَتْ بـأجْـزَل نعمـةٍ أوبـاتُـه
نَجْلُ الهُدى وأخوك عـزَّت نسبـةً ... والمجـدُ تقْصُرُ دونَهـا غـايـاتُـه
في الله اعمـل سعيُه فحـوَتْ لَـهُ ... جمْعُ الفضائِـل والعُلى مَسْعاتُـه
سيفٌ بكَفِّـك مُصْلَتٌ تَسْـطو بـه ... مـاضِي الشَّبـا لا تُتَّقى نَـشَواتُـه
نَـدْبٌ أشمُّ الأنْف إن سُئِـلَ الـذي ... لا يَـرْتَـضي ثـارَتْ لَـهُ أنَفـاتُـه
سَهْـلُ الجَوانبِ راضيـاً ومـواليـاً ... وإذا تـنكَّـر أحـزنـتْ جَنبـاتُـه !
سـاسَ الأنـامَ فـأمِلَت نعـمـاؤه ... ونَـوالُـه وتُـخُـوِّفَتْ نـقـمـاتُـه
يَـرْعى بجَفْن كـلاءةٍ وحمـايـةٍ ... مـوصـولـةٌ في رَعْيِـه يـقـظَاتُـه
أنتم لأهـلِ الأرض أوثقُ عصمـةٍ ... وبـأمركم عُـطفَتْ عليه حَيـاتُـه
لا زلتُم للمَكـرُمـاتِ ولِـلعُـلى ... شمْـلاً ، ولا يقضي عليه شَتـاتُـه
وأستقبلوا في الـدَّهر عُمْـراً باقيـاً ... مـا واصَـلَتْ غَـدَوَاتِـه رَوْحـاتُـه

وقال أبو عمر بن حربـون يهنيء بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير
[115] أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط الأخوة بينهما : (وافر)

بـأيْـمـنِ طـائـرٍ كـان الإيـابُ ... وأنـجـح مـطلب بَـلَغ الـطُّلابُ
وكـانـتْ وجهـةً كَـرُمت مَـنـابـاً ... فـقـد شُكِـرَ الـتـوجُّـه والمئـابُ
إذا قضت مثاربَكم جميـعـاً ... فما في سعْـدِ طـالِعها ارتيـابُ
دلـفـتُـم بـالأسـودِ الـى بـلادٍ ... ثَـوتْ حِجَجـاً تعيثُ بها الـذِّئـابُ
أُشبِّـهُـهـا غـداةَ حَـلَلْتُـمُـوهـا ... بلاد الجدْب حلَّ بهـا السَّحـابُ !

فلولاكُمْ لقَدْ أضْحَتْ مواتاً   يُسَنُّ على تَرائيها التُّرابُ !
فقد ألقى عَصا العِمران فيها   وقوَّض رحْلَه عنْها الخَرابُ
جَمعْتم من بَني قَيْسٍ شُعوباً   تَسِيلُ بها المَحَاني والشِّعابُ
تجانَسَ جيْشُهُم لفظاً ومَعْنىً   فهُم عَرَبٌ وخَيْلُهُم عِرابُ
تعاهَدْتُم مواطِنَ خيْر أرْضٍ   مكرَّمَةٍ تشدُّ لَهَا الرِّكابُ
هو الجَبلُ الذي للفَتح فيه   مخايلُ ما لصادِقِها كِذابُ
به من نُور سيِّدنا أبيكُم   شعاعٌ ما يزال لَه التِهابُ
وشطْرَ المَغْرب الأقصى ثنيْتُم   أعِنَّتها كما زخَرَ العُبابُ
وليس سموّكم كحبابِ ماءٍ   ولكن مثل ما يسْمو الحبابُ
أتتْكُم كتبُهم مستصرخات   فطيّر من كتائِبكم جوابُ
يخطُّ من الصُّفوف به سُطورٌ   فيصغرُ رقعةً عنه اليَبابُ
فكم من مارِدٍ عاجَلتُموه   كما ينقَضُّ في الجوِّ الشِّهابُ
حَبَيْتُم غاربَ الكفرانِ منه   بأمر لا يطيرُ لَهُ غُرابُ
[116] وَلِيَّ العَهدِ أُنجِحَتِ المساعي   بيُمنِكم وأصحبتِ الصِّعابُ
وأُحْكِمَتِ الأمور بما تَواصتْ   به الألبابُ والحُسُب اللبابُ
نُصِرتم من أبي حفْص أخيكم   بماضي الحدِّ تَعرفه الرِّقابُ
وقبلكُم اصطفى مُوسى أخاه   فشأنهما وشأنكُما عُجابُ !
سَرى عنكم ببَحْر مكفهرٍّ   يُصبُّ على العصاةِ به العَذابُ
تسير الشمسُ شيِّقةً إليه   كأنَّ الطير بينهُما حِجابُ
تضمَّن رزْقها فترى عُقاباً   من الرَّايات تتبعها عُقابُ
إذا رَكع الوَشيجُ على الهَوادي   فقد سجَدَت له الشُّمُّ الهِضابُ
عليه من سَراة بَني عَليٍّ[1]   عَليٌّ لا يُضافُ اليه عَابُ
كَسُوب الحمد مِتلافٌ وَهُوبٌ   كمثل البَحْر يُرجى أو يُهابُ
كأنَّ النَّاس من خَطإٍ وأنتمُ   - أدام الله أمركم - صوابُ !

(1) يعني به علياً والد الخليفة عبد المؤمن، البيذق، أخبار المهدي ص 21 - 22 ابن عذاري ص 36.

وأنتم[1] في مشاهدكم كُهُولٌ   وأنتم في موالدكم شَبابٌ !
فمن يرجو بوَصفكم قِياماً   وفضلُكم تضمَّنَه الكِتابُ
فما يستطيع غايَتكم حسِيبٌ   ولا يَحوي فضائِلَكُم حِسابُ
أسيِّدنا أبا حفصٍ رِضاكُم   بهِ يُرجى لدَى الله الثَّوابُ
وَلَوْلا ما أؤمِّلُ من رِضاكُم   لَما سَاغَ الطَّعام ولا الشَّرابُ
أنا العبدُ الغريبُ وليْس يزري   بمن آواه ظلُّكم اغْتِرابُ
بعيدٌ أن يسيءَ إليَّ دَهْرٌ   نوائبُه بذكركُم تُنابُ

وقال أبو عمر أيضاً مرجعه من الجبل ، [117] يمدح السيد الأعلى أبا حفص وقد استكتبه على ما تقدم الذكر به[2] ويهنئه بزورة كعبة أخيه ويحثه :

(كامل)

حَثُّوا المطيَّ فقد قضتْ أوطارها   واحْدُوا الى بابِ الأمير قطارها
وإن اشتَكت[3] أيْناً فلا ترنو لها   حتّى تُحدث عنده أخبارها
لا تعذروها أو تحلَّ فناءَه   فإذا حَلَلْتُم فاقبلوا أعْذَارَها
واستوصلوا أعمالها وكلالَها   فالنَّفعُ في أن تشتكي أضرارَها
حتّى تزوروا كعْبَة الفَضل الَّتي   قد أحسنتْ بركاتها زوّارَها
فإذا استلمتم بالسَّلامة ركنَها   فارموا بأخفاف المَطيِّ جِمارَها
هَا أنَّها صور اليكم نُزَّعٌ   قدْ صارَها من حُبِّكم ما صارَها
بلغت رباطَ الفتح عُوجاً ظلَّعاً   قدْ كان يستوي السرى أمّارَها[4]
وستغتدي بَعْدَ الغُؤور جواحِظاً   إن ملأت بسقاتكم أبْصارَها
فاستشرَفوها كالسِّهام سَواهِماً   تطوي المهامِه ليْلَها ونهارَها
تطوي صحائف كل أرض صحصح   رسَمَ السُّرى بحروفِها أسطارَها

(1) في المخطوط: رأيتم وهو لا يستقيم.
(2) وذلك في صفحة 111 مع أبي الحسن الهوزني.
(3) في المخطوط اشتكيت وهو لا يستقيم ولا يسوغ ذلك.
(4) كذا في الأصل ولم نتبينْ معناه.

ومتى شـدَا الحـادي لحُسن ثنـائِكم   طـارَتْ بـأجنِحَة السُّرور مَـطارَهـا
صـدرَت عن الجبَل المُبارَك بَعْدَما   بثَّت بسَعْـدِكُم هنـاك شِعـارَهـا
واستقـدمتْ للرُّعب كـلَّ كتِيبـةٍ   شنَّت بـأرْضِ المُشرِكين مَغـارَهـا
وقضَتْ بـأرض العـدوتَيْن مثـاربـاً   شـكَـرَ الأنـامُ لفضلِكم أثـارَهـا
[118] تَسْري مصالحُها بسنَّة صالِح   إن لم تـرع فرقَ العصـاة قُـدارَهـا[1]
جهَّـزْتُم نـحـوَ الأعـادي فيْلَقـاً   سحَّـاب أذيـالِ القَنـا جَـرَّارَهـا
جَـاؤُوا تقـدمهـا السُّعود طَـلاَئِعاً   وتَـرَى مـلائكـة العُلَى أَنْصـارهـا
لبستْ بهـا شمسُ الـظَّهيـرة حُلَّةً   خلط العجـاج لجينَهـا ونُضَـارهـا
فـتـطلَّعـتْ مـنْـه تـطلُّعَ غـادَةٍ   تبْـدو وأحيـانـاً تـضمُّ خمـارَهـا
فكـأنَّ أرضَ الملحِـدِينَ لِبـاسِكُم   ثَكْلى تمـزِّقُ صَـدْرَهـا وصِـرارَهـا
فتـهـنَّـؤوهـا دَوْلـةً « مـهـديَّـةً »   رَفـعَتْ لأبـصـار العِبـاد منـارَهـا
أبْـنـا وذكـركُـم تـعـلةُ لـوْعَـةٍ   قـد أضـرَمتْ بينَ الجوانِح نـارَهـا
والشَّمـلُ متَّصلُ النِّظام بـدَعـوَةٍ   مـيـمـونـةٍ تـمَّـمْـتُم أنـوارَهـا
فتنشَّقـوا عَبْق التحيَّـة نحـوَكُم   تـهـدي اليكم وَرْدَهـا وعِـرارَهـا
زارَتـكُم منـهـا عـجـالـةُ قـادِمٍ   نـظَمَتْ ببشْر لقـائِكم أشعـارَهـا

وقـال الكاتب أبـو عبد الله الشـاطبي[2] مهنئاً بـالإياب مـادحاً وهـو كاتب مجيـد، ورجل مجيـد، إلا أن سبب توحشـه عن النـاس وهم استغلب عليـه فاستولى عليه بذلك الخمول والقعود : (طويل)

---

(1) قدار: ابن سالف الذي عقر ناقة الله آية صالح عليه السلام.
(2) لم نطمئن لما وجدناه عند البحث عن هذه الشخصية وإن كنا لا نستبعد أن يكون هو محمد بن عبد الرحمن بن ياسين الذي كـان معدوداً من الفقهـاء والأدباء والـذي كان لـه حظ من قرض الشعـر والمتوفى سنة 590 وقد نقل من شعره يهجو بلدته شاطبة:

شـاطـبـة قـريـة ضـنـيـنـه   لـيـسـت لمـن آمـهـا مُـعـيَـنـة
تهْـتـضِـم الـطِّـيب اهـتـضـامـا   وتـألـف الـدّهـرَ أن تُـعـيـنَـه
والخـبـث المـحض تـصْـطَفـيـه   ضِـدّاً لِمـا جـاء في المـديـنـة!

زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد ص 95.

سـلامٌ كعَـرْف الـرَّوض غبَّ قِطَاره   تَـحِيـة مـشْتـاقِ الـفُـؤاد مُـطاره
وبُشْرَى كما انشقَّ الدُّجى عن صَباحه   ولاحَ هِـلالُ الـفِـطر بعـد سِـرَاره
يـقـر بعـين الـملك مِـقـدَم سـادةٍ   يُـسـرُّ بـمـرآهـم مَـحَـلُّ قَـراره
[119] لتَهن أبَـا يعقوب غبـطةُ أوْبةٍ   بصنْـويـهْ وافتْـه لحين انـتـظاره
أميـرَان سَـلَّ الملك سيفيْـه مِنْهُما   عَلَى ثقـةٍ يـرجُـوهُمـا لانْتِصَـاره
بحيثُ أبُـو حَفْصٍ وعُـثمـنَ بعْـدَهُ   تـلقَّـاهُمـا لـلبِشْـرِ حِـينَ بِـدَاره
عَمِيـداً سَنَـاءٍ بَـلْ شِهـابَـا سِيَـادَةٍ   ومُلْكٍ أبُـو يَعْقُـوبَ قُـطبُ مَـدارِهِ
يُباحُ اخْتِيالُ الحُسْنِ مِن زهْـو خيلِهم   ولـيسَ بـنُـكْـرٍ مُـسْبَـلٍ عـن ازَارِه
ومَـا يرْهب الأعـداء مِنْ حُسْنِ منظر   فمِنْ خُلُقِ الإيمـانِ تَـركُ اخْتصـاره
لقَـدْ صَدِيتْ من نَـاصر الأمـر مُقْلَةٌ   لعُثمـانَ تَشْكُـو منْـه شحْط مـزارِه
فَنَـادَتْ أبَـا حَفْصٍ أخَـاه لعَـزْمَـةٍ   كمِثْلِ اليَمَـاني حُـدَّ غـربُ غِـراره
يُـواصِـل ادْلاج الـسُّرى من ظـلامِـه   بتـأويِبِ سَيْـرٍ في سَـرَابِ نَـهـاره
وَجـاءا ، كما سـوَّى جناحَيْـه طـائِرٌ   إلى مُجْتَنَى الآمَـال قَصـد مَـطَاره
بحيثُ استقـرَّ العِلْمُ والحِلْمُ والهُدى   وحـلَّ بـه لـلدِّيـن حـامـي ذمـاره
بِـهِ السَّعـد ممتَـدٌّ وهَـديُ خـلافَـةٍ   هِيَ الـلاَّحِبُ الهـادي بضَـوءِ منـاره
قـدِ اعتاضَـهُ الـرَّحمن للخَلْق رحمْـة   وأجْـرى لـه الأقـدارَ وفْق اختِيـاره
حكتْ بيعـةَ الرضْـوان[1] بيعتُـه التي   بِهَـا غُزِيَ الإلحـادُ في عُقْـرِ داره
ألستَ تَـرى في النـاكِثين وقَـائِعـاً   يمينُ الـرَّدى فيهـا كمِثْـل يَسَـاره
تُـنَسِّي هِـلالاً حَـرْبَ ؟ نِسَـاره[2]   ويَنْسَى ابنُ مُـرّ ؟ وقْع يـوم حِفـاره[3]
حَصَائِدُ سَيْف الحقّ صَـرْعى بشاهق   بـه امِـن الـمُـغْتَـرُّ وَقْـع حِـذارِه

---

(1) يشير إلى البيعة التي تمت في صدر الإسلام على مقربة من مكة عند الحديبية فراجع ما كتبه المفسرون عن الآية الشريفة: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾. سورة الفتح الآية 18. ابن جزي: كتاب التسهيل، المجلد الرابع.
(2) لا شك أن هنا كلمة سقطت للناسخ توجد أثر كلمة هلال أو حرب.
(3) يعني أن تلك الوقائع تذهل هلالاً وابن مر... لكن مَن هو هلال؟ وابن مر؟ فهل هلال بن مردنيش؟ وهل الأصل ابن مريق؟ لم نهتدِ فعلاً للتأكد من قصد الشاعر.

لقد عَمِيتْ منْها البصائر شقْوَةً — أحلتْهُم للهلك دارَ بَوارِه
ولوَ قرعوا للصّفح أبواب توْبةٍ — لَهُ لم يخُوضُوا للرَّدى في غِمَاره

[120] هُوَ الملك المَيْمُون طائرهُ انتمى
إلى الشَّرَف الأعلى كريمُ نجاره
تُناديه للألباب مَوْرد حكمةٍ — يفجِّرُه للفهم سبْر اختِباره

ومنْها :

هو ابنُ أمير المؤمنين أقامَة — الى بثّ علم منذُ بدْءِ انتِشاره
لهذا الفراغُ يزْكو مِن أرومة أصلِه — وللفرع ما يوتى الجنَى من ثماره
بكم حَسُنَ الشِّعر الذي راق نظمه — ولم يكُ إلا مدْحُكُم من شِعاره
له خجَلُ التقصير في وَصف مجدِكم — ولكنْ عُلاكم قابلُ لاعتِذاره
عسى الجُود يحظيه بصفْوة صافي — يشق على ذي السَّبْق شق غباره
ودونكَها يا بنَ الإمام قصيدةً — من الأدب المنظوم بعد انتِشاره
كما قرَنَ الآتي الى البيت حجَّه — وشفْعَه في نيَّةٍ باعتِماره
وحسْبُكم هَذْياً ثناءً عليكُمُ — بصفو ضمير لم يُشَبْ بسمَاره
له كعبةُ منكم تطوف بها المُنى — وحيثُ مُنى الإنشاد مرمى جماره !

ذكر العزم المؤيد من السيد الأعلى المجاهد الاسنى المرحوم أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم بالحركة السعيدة المنصورة الى ابن مردنيش باتفاق ورأي الأمير ابي يعقوب رضي الله عنه ، واجازته البحر بعسكره المظفر ومنازلته بلاد ابن مردنيش مردفاً للشيخ أبي سعيد[1] بن الحسين والشيخ [121] أبي عبد الله[2] بن يوسف المتقدمين بالعرب الى جزيرة الأندلس لحماياتها في ربيع الأخر من عام ستين وخمس مائة على ما تقدم الذكر به في هذا التاريخ[3] وما دار في ذلك من الفتح

قال المؤلف : وأقام السيد الأعلى أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشهر شعبان كله ، وكان أبو سعيد بن الحسين وأبو عبد الله بن يوسف قد تقدما بعسكر العرب المذكور على ما تقدم[4] وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس مائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية صيْفتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة

(1) يعني أبا سعيد يخلف بن الحسين. راجع التعليق رقم 1 ص 180.
(2) عوض هذه الورقة رقم 61 نجد في المخطوط المجلّد ورقة تحمل رقم 62 بينما هي في الواقع رقم 56، وتبتدىء هكذا «جملة حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كل فضيلة. . .» راجع التعليق رقم 4 ص 185 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ثم أن الشيخ أبا عبد الله بن يوسف ممن لم نجد لهم ذكراً في البيذق ولا ضمن الرسائل الموحدية ولا في بقية المصادر الأخرى التي بين أيدينا فلعلّه ممن بقي ممن لم يوقف على أسمائهم. ابن عذاري ص 48 - 49.
(3) وذلك صفحة 105.
(4) وذلك صفحة 121.